- كرم الإسلام الإنسان لآدميته، لم يفرق فى هذا التكريم بين طفل وشيخ، بين امرأة ورجل، بين أسود وأبيض أو عربى وأعجمى، مسلم أو غير مسلم، نص التكريم لا قيد فيه ولا حصر ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾، من هن شكلت هذه اللحظة التاريخية تأسيسا لحقبة جديدة تعطى كل أسباب التغيير المجتمعى أداة جوهرية تعتبر الإنسان، أكمل الموجودات وأتم الكائنات وأفضل المخلوقات. فالإنسان فى القرآن الكريم خليفة الله تعالى فى الأرض، ومزود بالعلم والعقل، وهذه الخاصية لم تكن لمخلوق سواه: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾؛ أى الإنسان الذى جاء فى وصفه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾.

لا يمكن قراءة هذا التكريم دون حفظ حق الحياة باعتباره الشرط الواجب للتمتع بأى حق أو تكريم. وبناء على ذلك، فالقرآن لا ينتظر الكم ليحدد هوية الجريمة، فالضحية الواحدة خسارة لا تعوض والجريمة تبدأ بحياة الفرد الواحد كما جاء فى القرآن الكريم: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ

جَمِيعًا﴾ من هنا قامت الدعوة الإسلامية على مبدأ السلام ورفض العدوان على الأفراد والجماعات باعتباره جريمة محرمة فى كل زمان ومكان.

- والسلام فى الإسلام يعنى السلم والسلام والسلامة والتسليم والصلح والبراءة من العيوب، والسلام من كل عيب وهو اسم من أسماء الله الحسنى حيث جاء فى القرآن الكريم: ﴿هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ﴾ [سورة الحشر: الآية: ٢٣]. وفى الحديث الشريف (اللهم أنت السلام ومنك السلام) وفى سورة يونس: ﴿وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الآية: ٢٥]. ولم يكتف الإسلام بذلك: بل أصدر القرآن أمره الإلهى للمؤمنين، قائلاً: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [سورة البقرة: الآية ٢٠٨]. والسلام فى الاصطلاح لا يخرج عن هذا المعنى والسلام فى القرآن الكريم هو الأصل والقاعدة والغاية والعزيمة فى علاقات الناس مع بعضهم البعض أفرادًا وشعوبًا ومؤسسات.

- يقول الدكتور نصر فريد واصل مفتى مصر الأسبق: "الحرب فى الإسلام لا تشرع إلا للدفاع عن النفس والدين والوطن لقوله تعالى: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ

جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ﴾، ويؤكد أحد العلماء على الطابع السلمي المبدئي للفقه بالقول:

"إن الفقه الإسلامي هو فقه إنساني؛ فمثلا: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾،﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾، ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾، ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾؛ ثم نقرأ: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ،وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾. الإمام علي بن أبي طالب يقول: إن الناس صنفان، إما أخ لك في الدين أو نظير لك في الخلق، والنبي يقول: "إن الرفق ما وضع على شيء إلا زانه ولا رفع عن شيء إلا شانه"، وإن الله رفيق يحب الرفق ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف.

- لا يجوز الاعتداء والطغيان، كذلك لا يجوز التعسف في استعمال الحق، كما لا يجوز الفتوى والقضاء على طبق التعسف إذا كان التعسف يصل إلى الضرر الكثير في حق نفسه ومطلق الضرر في حق الغير، وإلا جاز إذ لا نص بالنسبة إلى لفظ التعسف، وإنما الميزان هو ما ذكر في الشريعة من لفظ: لا ضرر ولا ضرار..

أساس رفض العدوان بكل أشكاله واضح في سورة الممتحنة: ﴿لَا

يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ، إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾.

وهذا بلا نقاش منطوق الآية الكريمة: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.

قال الرسول في خطبة حجة الوداع: "أيها الناس: إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم إلى إن تلقوا ربكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا. ألا هل بلغت؟ اللهم فاشهد".

- ويقوم رفض العدوان في الإسلام على قاعدتين أساسيتين:

أولاً: إن الأصـــل في الإسلام هو قبول الآخر الذي لم يقاتل المسلمين في الدين ولم يخرجهم من ديارهم والحرب في الإسلام تكون دائمًا دفاعية ضد المعتدي انطلاقًا من الآية الكريمة: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾.

ثانيًا: احترام المواثيق والأعراف والالتزام بالعهود، سواء كانت عامة أو خاصة: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللهِ

إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾ ﴿وَإِنْ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ﴾ ﴿إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾.

– في الإسلام إذن، كان المبدأ الأساسي في الخروج للمسلم لا للقتال والحرب وتجريم العدوان شكلاً ومضموناً. وإن كان ثمة نقطة يجمع عليها أصدقاء وأعداء الإسلام، فهي أن القتال لم يكن اختيار النبي والمسلمين وإنما من منطلق الدفع عن النفس. أي ما يعتبر الأساس اليوم في تعريف الاستعمال المشروع للعنف وقد أبيح القتال من أجل إنقاذ الدين واستقراره لا لغاية إنشاء الدولة ومن أجل حرية العبادة لا لأجل مصادرة حق الاختلاف، وهذه نقطة جوهرية لأنها الأساس في كل جدل إسلامي حول الجهاد والإمامة والحكم. وقد كانت منطلق الاعتزال والإصلاح في الإسلام قديماً وتعبر عن وجهة نظر الخط الإسلامي المتنور اليوم. ويؤيد ابن هشام، مؤرخ السيرة النبوية هذا الرأي بالقول:

"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بيعة العقبة لم يؤذن له في الحرب ولم تحلل له الدماء. إنما يؤمر بالدعاء إلى الله والصبر على الأذى، والصفح عن الجاهل، وكانت قريش قد اضطهدت من اتبعه

من المهاجرين حتى فتنوهم عن دينهم ونفوهم من بلادهم، فهم بين مفتون فى دينه، وبين معذب فى أيديهم، وبين هارب من البلاد فرارًا منهم، منهم من بأرض الحبشة، ومنهم من بالمدينة، وفى كل وجه؛ فلما عتت قريش على الله عز وجل، وردوا عليه ما أرادهم به من الكرامة، وكذبوا نبيه صلى الله عليه وسلم، وعذبوا ونفوا من عبدهُ ووحَّدُه وصدَّقَ نبيه، واعتصم بدينه، أذن الله عز وجل رسوله صلى الله عليه وسلم فى القتال والانتصار على من ظلمهم وبغى عليهم، فكانت أول آية أنزلت فى الإذن له فى الحرب، وإحلاله للدماء والقتال، لمن بغى عليهم، فيما بلغنى عن عروة بن الزبير وغيره من العلماء، قول الله تبارك وتعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾.

﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ...﴾ أى أنه أجل لهم القتال لأنهم ظلموا، ولم يكن لهم ذنب فيما بينهم وبين الناس، إلا أن يعبدوا الله، وأنهم إذا ظهروا أقاموا الصلاة، وآتوا الزكاة، وأمروا بالمعروف، ونهوا عن المنكر، يعنى النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم أجمعين.

- رخص الإسلام القتال لرفع الظلم ووقف جريمة العدوان.

وبالإضافة لهذا المبدأ الدفاع عن حرية الشعب واستقلاله وسلامه فى ضمان حرية العقائد كلها، كذلك تجد كافة الشعوب المظلومة: "أروع ما نادت به حضارتنا أن الدفاع عن الضعفاء المستذلين فى الشعوب الأخرى واجب علينا كما يجب الدفاع عن حريتنا وكرامتنا". ويظهر نص صلح الحديبية آخر السنة السادسة للهجرة (مايو ٦٢٨) بين قريش والمسلمين تفضيل رسول الإسلام لعهد غير متوازن يرافقه سلام عشر سنوات على الحرب، رغم كل ما أتت به الحرب من غنائم زرعت أولى الامتيازات المادية للانتماء الإسلامى... وهذا نص الصلح الذى تم:

"باسمك اللهم، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو اصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيهن الناس ويكف بعضهم عن بعض على أنه من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء قريشًا ممن مع محمد لم يردوه عليه، وإن بيننا عيبة مكفوفة (أى صدور منطوية على ما فيها)، وأنه لا إسلال ولا إغلال (أى لا سرقة بالخفاء ولا خيانة) وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه".

– ولقد حرم النبى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قتل النفس غير المقاتلة والاعتداء على النساء والشيوخ والأطفال والأملاك وقطع

الشجر والإضرار بمصادر المياه والتحريق وكل ما يعود على الإنسان بنفع فى الحروب ويروى عنه قوله: "لا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا ولا شيخًا" فى أول تحديد عربى إسلامى للعدوان فى أثناء القتال أو جريمة الحرب بمصطلحنا المعاصر. ويحض القرآن على مبدأ الحياد الإيجابى، أى السعى إلى المصالحة فى الحروب كمبدأ أول ثم التدخل ضد الفئة الباغية فى حال استمرارها فى العدوان. وقد بقيت الوصايا الأساسية مجتمعة على لسان وصية أبى بكر الصديق الشهيرة: "يا أيها الناس، قفوا أوصيكم بعشر، فاحفظوها عنى: لا تخونوا ولا تعلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً صغيرًا ولا شيخًا كبيرًا ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا، ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة، ولا بقرة ولا بعيرًا إلا لمأكلة".

تجمع أسس حماية الحقوق الأساسية للناس فى زمن الحرب حيث تمنع التعرض للمدنيين والفئات المستضعفة وتطالب بالحفاظ على ما هو حى من النبات والحيوان. وقد أضيف لها عدم هدم بيت أو صومعة أو مكان عبادة فى مأثورات لعلى بن أبى طالب وعمر بن عبد العزيز.

- عند حصار القدس طلب: "بطريركها صفرينوس" أن يحضر أمير المؤمنين عمر ليسلم له مفاتيح المدينة فاستجاب الخليفة لطلبه؛ ودخل القدس واستلم مفاتيحها، ولما حانت الصلاة، وطلب منه

"البطريرك صفرينوس" الصلاة فيها لم يفعل الخليفة ذلك خوفًا أن يستغل ذلك الناس بعده فيطالبوا بموقع الكنيسة تحت حجة الصلاة فيها أن الخليفة صلى فيها، وبعدها كان عقد الأمان المشهور باسم العهدة العمرية، وقد ورد فيها:

"هذا ما أعطى عبد الله أمير المؤمنين عمر أهل إيليا (القدس) من الأمان أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم ولصلبانهم ومقيمها وبريّها وسائر ملتها أنها لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من حدها ولا من صليبهم ولا شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضارّ أحد منهم ولا يسكن بإيليا معهم أحد من يهود". في ظلال هذا المسلك، نجد شكوى أهل سمرقند لعمر بن عبد العزيز من توطين مسلمين في مدينتهم غدرًا بغير حق. فعين الخليفة قاضيًا ينظر في الشكوى.

وقد حكم القاضي (المسلم) بإخراج المسلمين. مثل آخر في رسالة الإمام الأوزاعي لعلي بن عبد الله بن عباس عامل لبنان يستنكر عليه أن يبعد بعض السكان عن مناطقهم بعد انتفاضة قام بها الأهالي طالبًا إعادة من أجلاهم لبيوتهم ورفض مبدأ العقوبة الجماعية: "كيف تؤخذ عامة بذنوب خاصة حتى يخرجوا من ديارهم وأموالهم. وحكم الله تعالى أن لا تزر وازرة وزر أخرى".

ونجد في مخطوطات "آيا صوفيا" قصصًا عن السلطان محمد الفاتح

الذى طلب جمع كل آثار القديسين وأماكن العبادة الأرثوذكسية التى سرقت بعد دخول القسطنطينية لتسلم إلى الكنائس والأديرة. ورفض التدخل فى انتخابات "البطريرك" معتبرًا قواعد عمل الكنيسة فى الوظيفة والتركيب وطريقة الحياة وتقاليد العبادة والعيش حقًا لا يجوز الاعتداء عليه.

ويرجع تاريخ العدوان فى الحقيقة إلى بداية ظهور البشرية حيث عرف البشر أول عدوان كما ذكر فى القرآن الكريم عندما قتل قابيل أخاه هابيل: ﴿فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة المائدة: ٣٠]

وقد ذكر العدوان فى القرآن فى أكثر من موضع منها:

١ - ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَنَاجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَاجَوْا بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَمَعْصِيَةِ الرَّسُولِ وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ . [سورة المجادلة: ٩]

٢ - كما توجد إشارات فى بعض الآيات إلى العدوان اللفظى المباشر كما جاء فى [سورة الممتحنة: ٢]:

﴿إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ﴾.

- ولم يكن الإسلام يومًا أداة للقهر، والذين ينتمون إلى هذا الدين

مثلهم فى ذلك مثل الذين ينتمون إلى غيره من الأديان السماوية، يعرفون جيدًا أن الإيمان هو الطريق إلى تحرير الذات وكسب الآخر وليس قهره.

وكلمة الإسلام مشتقة من كلمة "السلام" ويشكل السلام أحد الأركان المهمة فى العقيدة الإسلامية، وقد ذكرت كلمة "السلام" فى القرآن أكثر من ١٤٠ مرة، ويؤكد الإسلام على نبذ العنف والقتل ويقول الله تعالى فى كتابه الحكيم: ﴿مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾. وقد بين النبى محمد صلوات الله عليه السلوك الصحيح للمسلم فقال: "المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده" وقد أشار القرآن لهذا الموضوع فى مراحل الوقاية الثلاث. يبدأ أسلوب الإسلام فى الوقاية من العنف قبل الميلاد حيث يوصى الزوج باختيار شريكة حياته من مجتمع جيد مسالم فيقول الحديث الشريف: " تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس" . كما يوصى الرسول بتجنب زواج الأقارب فيقول الحديث الشريف: "اغتربوا لا تضروا".

ويوصى الرسول صلوات الله عليه ـ الشباب ألا يتزوج فتاة لجمالها فقط إذا كانت قد نشأت فى بيئة سيئة؛ لأن مثل هذه الفتاة تشبه زهرة نمت فى بيئة فاسدة فيقول: "إياكم وخضراء الدمن وهى المرأة الجميلة فى منبت السوء" وهذه الوصايا لتجنب الجينات المريضة.

فان بعض الممارسات القائمة لدى بعض الناس فى مجتمعنا يتنافى كثيرًا مع الأسلوب الإنسانى والشرعى التى يفترض بنا التزامه.. فلا مجال عندها للتعامل مع أفراد مجتمعه بأسلوب العنف الذى يمارس بطريقة الشتم والتحدى وصولاً إلى أسلوب الضرب الذى يتحركون به كواقع طبيعى عادى لا مجال لتوجيه اللوم عليه وإنكاره. ومن الطبيعى أن هذا الأسلوب يمثل ظلمًا يرفضه الإسلام.

وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله فى تحريم محاربة المسلم لأخيه المسلم: "لا يشير أحدكم إلى أخيه بالسلاح فإنه لا يدرى لعل الشيطان ينزع فى يده فيقع فى حفرة من النار".

وقال عليه الصلاة والسلام: "من أشار إلى أخيه بحديدة، فإن الملائكة تلعنه حتى ينزع وإن كان أخاه لأبيه وأمه".

الدعوة إلى الرفق: قال عليه الصلاة والسلام: "إن الله يحب الرفق فى الأمر كله".

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط موفق، ورجل رحيم رفيق القلب لكل ذى قربى ومسلم وعفيف ذو عيال".

وقد وضع الإسلام حدودًا معينة لا يجب تجاوزها كما أن هناك أنواعًا خاصة من العقوبة تطبق على من يتجاوز هذه الحدود وذلك لتحقيق التوازن فى المجتمع وللحيلولة دون احتمال الأخذ بالثأر.

ولكن على الرغم من كل هذه الاحتياطات فإن الإسلام يشجع الناس على التسامح والعفو. وهذا الاتجاه يساعد على تقوية صلابة شخصية الفرد المسلم واستقرارها ويقول القرآن الكريم فى هذا المعنى) ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ﴾.

ويقول أيضا:﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾.

ولا تنطبق هذه القواعد على الأفراد فقط ولكنها تنطبق على المجتمعات والحكومات، يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾.[الحجرات: ٩-١٠]

هذه هى المبادئ الإسلامية العالمية بخصوص مشكلة العنف وهى المبادئ التى وضعت موضع التطبيق فى عمليات العنف، فإن الإسلام عندما يوفر قاعدة عريضة لمقاومة العنف فإنه يكون بذلك قد حفظ حقوق الأفراد وأكد على التزاماتهم ويكون بذلك قد ساعد على إيجاد مجتمعًا متوازنًا وقد أعلن الإسلام عن حقوق الأطفال والوالدين والمرأة وحقوق الفقراء وحقوق المرضى النفسيين وكبار السن.

إن كل هذه الحقوق إذا اتبعت وأخذت ما تستحقه من عناية

واهتمام سوف تضمن مجتمعًا يستمتع بالصحة ويخلو من الظلم والعنف والكراهية.

وفى واقعنا الأسرى فى مجتمعاتنا وفى ضوء تقاليدنا تتحكم بعض الأساليب التى أصبحت واقعًا حياتيًا معيشيًا يحكم أسلوب التعامل بين الرجل والمرأة. أو بين الأبوين والأبناء، ويطبع العلاقة بينهما بطابعه.. فنلاحظ مثلا تحكم أسلوب العنف الذى تطبع به المجتمع العائلى فأصبح يمثل عرفًا حتى أصبح طبيعيًا نحاول إعطاءه تبريرًا منطقيًا حين نمارسه بدعوى كونه منهجًا تربويًا يعمل على تطبيع المرأة وأسلوبها بما يتناسب مع تطلعاتنا للحياة الزوجية أو تربية الأبناء لتحقيق حالة الاستقرار داخل الأسرة من خلال الالتزام مطلوب.

فنلجأ ـ مثلاً ـ من أجل فرض واقع انضباط المرأة ـ تجاه زوجها ـ لتنضبط عمليًا بشكل حاسم فى تحقيق رغباته ومختلف حاجاته ومطالبه. إلى التعامل معها بأسلوب العنف المتمثل بالسب والشتم والإعراض والطرد والضرب وما إلى ذلك من وسائل الضغط التى يملكها الرجل. كما نلجأ لمثل هذا الأسلوب فى التعامل مع الأبناء فى مثل هذه الحالات، بل أصبحنا نلحظ تحكم هذا الأسلوب فى واقع هذه العلاقة مع الأبناء فى مثل هذه الحالات، بل أصبحنا نلحظ تحكم هذا الأسلوب فى واقع هذه العلاقة لدى بعض من يدعى الالتزام بالإسلام كمنهج وخط، وهذا يعطى الموضوع بعدًا سلبيًا آخر.

وهنا نتساءل ما هو نصيب هذا الأسلوب من الواقعية والمنهجية؟

أو ما الأسلوب الذى يفرضه الواقع التربوى المطلوب اعتماده لتحقيق سلامة الحياة المنزلية والعائلية؟ بل ما طريقة الإسلام التربوية لتحقيق الهدف الحياتى الذى تفرضه المصلحة العائلية؟

لو حاولنا استكشاف المنهج الإسلامى فى هذا الواقع لرأينا أن الإسلام حين قوم الواقع العائلى وشرع له، نظر إليه من جانبين:

١ - إنسانية كل واحد من أفراد الأسرة دون استثناء.

٢ - أخلاقية التعامل بين هؤلاء الأفراد، سواء فى إطار نظرة رب البيت للزوجة والأبناء أو فى إطار نظرة هؤلاء نحوه، وطريقة تعاملهم معه، فحاول أن يرسم خطوطًا للتعامل تراعى إنسانية الإنسان فيهم وأخلاقية العلاقة التى تقوم بينهم عاطفيًا وسلوكيًا، من جهة أخرى وذلك على النحو التالى:

رعاية متبادلة:

فقد شجع الإسلام كل واحد من الأفراد أن يشعر بالمسئولية تجاه الأفراد الآخرين داخل الإطار المنزلى، من خلال إمكاناته وطاقاته، ليمارس الرعاية التى افترضها الإسلام على كل مسلم تجاه غيره من المسلمين، كما جاء عن رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم: "ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول

عنهم. والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسئولة عنهم في الوقت ذاته رسم الإسلام حدودًا للتعامل وإطار للتعايش بالمعروف، ولا سيما في العلاقة الزوجية.

﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [سورة النساء: ١٩] إن هذا يعطي صورة العلاقة التي يرسمها الله سبحانه وتعالى ويريد أن تتحرك داخل البيت، وتحدد منهج الرجل الذي يمسك بحق القوامة على المرأة والولاية على الأبناء، في مجال التحرك لحفظ الواقع ضمن إطار الرعاية الأخلاقية المتوازنة البعيدة عن كل اعتداء على حق هؤلاء في العيش بحرية وكرامة وسلامة، في ذات الوقت الذي يبادلونه فيه ذلك برعاية حقه واحترام وجوده وقراراته التي يحدد من خلالها إطار التحرك لها نحو التجمع الإنساني الصغير. ولا بد لتحقيق هذا التعايش بالمعروف من التزام منهج العمل باحترام إنسانية كل واحد من هؤلاء واعتماد أسلوب التراحم ورعاية المشاعر والأحاسيس، وبناء روح المحبة والتعاطف، وحمل ما تفرضه المسئولية الخلقية والشرعية من التزامات مادية ومعنوية وروحية، مضافًا إلى الشعور بالمسئولية التربوية تجاههم بتصحيح مسيرتهم في الحياة بمختلف جوانبها من خلال أسلوب الحكمة والموعظة الحسنة. فمهمة القوامة أو الولاية ترتب على القيم والولي مسئولية التنظيم والتوجيه للحياة الأسرية للحفاظ على سلامة الأسرة، مما يلزمه في المقابل انضباط هؤلاء مع توجهاته، حين لا تتنافى مع واقع العدالة وسلامة الفكرة والقرار وحين لا يتم التجاوب مع الولي والقيم فله فرض حالة الانتظام بالأسلوب المنتج الفاعل.

فى الجانب الشرعى التكليفى، لا يفرض التشريع الإسلامى فى الإطار العام على المرأة تجاه الرجل سوى ضرورة التجاوب معه فى مجال الخصوصيات الزوجية المحددة، وحفظ الأمانة، والتزام الضوابط فى مجال مغادرة المنزل الزوجى. أما فيما عدا ذلك.. من أمثال الخدمات التى جرت طريقة العرف على أدائها لها، والالتزام بكل الأوامر الصادرة عن الزوج ـ مهما كانت ـ فهو مما لا يفرضه عليها التشريع، بل يترك أمره لرغبتها ولإرادتها الحرة دون أن يسمح بفرض ذلك قسرًا عليها لتمثل دور الخادمة المستأجرة، وما ذلك إلا لأن الإسلام أراد للحياة الزوجية أن تتحول إلى حياة حب وتضحية وحين يشعر الزوج بأهمية تلك التضحيات فإنه يبادلها بالشكر واللطف والمحبة.

وانطلاقًا من هذا، فإن بعض الممارسات القائمة لدى بعض الناس فى مجتمعاتنا يتنافى كثيرًا مع الأسلوب الإنسانى والشرعى الذى يفترض بنا التزامه.. فلا مجال عندها للتعامل مع الزوجة بأسلوب العنف الذى يمارس بطريقة الشتم والتحدى وصولا إلى أسلوب الضرب، الذى يتحركون به كواقع طبيعى عادى لا مجال لتوجيه اللوم عليه وإنكاره، ومن الطبيعى أن هذا الأسلوب يمثل ظلمًا يرفضه الإسلام.

ويجب على الرجل حين يشعر بضرورة انسجامها وشعوره

بالمسئولية معه، لا بد له أن يستخدم منهج الرفق واللطف من جهة الحوار والإقناع من جهة أخرى فبذلك يمكن انتزاع القرار منها فى تحقيق تطلعاته وأحلامه وهذا يساهم فى بناء الثقة فيما بين الجانبين، ويدفع الزوجة إلى تحقيق سعادة الرجل والبيت بشكل عام برغبة ومحبة، فالعنف فى أكثر الحالات لا يحقق النتائج المطلوبة، بل قد ينعكس سلبًا على كل واقع الحياة التى قد تتحول إلى سجن كبير لكلا الجانبين، فيعملان عندها للتحرر منه ولو من خلال تدمير الأسرة بأكملها.

من هنا فإن الأسلوب التربوى الذى لا بد أن يمارس، ينبغى أن يتحرك فى أجواء الحكمة والموعظة الحسنة باستخدام الكلمة الطيبة التى جعلها القرآن: ﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا.﴾ [سورة إبراهيم ٢٤: ـ ٢٥] ليتم إلغاء السلبيات بهذه الطريقة لا بطريقة القوة والعنف الذى ربما يتاح للطرف الآخر استخدامه، فتتحول الحياة إلى صراع ومشكلات تنعكس سلبًا على كل واقع الحياة العائلية. إذ من الطبيعى انعكاس الصراعات والمشكلات الزوجية على واقع الأبناء فتحدد من خلالها طريقة تفكيرهم وأسلوبهم الحياتى، بل قد تخلق لديهم العقد النفسية وذلك بطبعهم بطابع مشوه يقود إلى الضياع والانحراف، وهذه سلبية أخرى من سلبيات النزاعات التى تقوم بين الزوجين تدفع بنا للتروى قبل الوصول إلى هذه السلبيات.

حملنا الإسلام مسئولية مهمة فى هذا المجال هى رعاية أطفالنا لإخراجهم للحياة عناصر سليمة صالحة، تخدم الحياة وتبنيها بناء ثابتًا متينًا لا يتزلزل أمام أى عاصفة وطارئ، وهذا يدعونا للتفكير بجدية فى طريقة التعامل معهم منذ بداية تحركهم فى هذه الحياة فتتعهدهم بالرعاية الكافية لتحويلهم إلى عناصر تبنى الحياة، وتتقدم بها نحو الأفضل بالأسلوب الذى أراده الله سبحانه وتعالى فنحن إذن نتحمل مسئولية صياغة شخصيتهم مستقبليًا، ليتحولوا إلى قوة فاعلة فى مجال أعمار الأرض.

ولا بد من اعتماد منهج تربوى مركز لتحقيق هذا الهدف. ولا مجال لالتزام منهج إعطاء الأوامر والتعليمات القاسية لتوجيههم. فذلك وحده لا يعطى أثره الطبيعى المطلوب، ولا سيما حين يصل الطفل إلى مرحلة من الوعى والتفتح الذهنى؛ لأن الأب ليس هو العامل الوحيد الذى يؤثر فى الطفل، ويكون شخصيته ونفسيته وسلوكه، بل هناك عوامل أخرى متعددة من غرائزه وشهواته ومتطلباته التى تتحكم بواقعه وإرادته وتكوين أهدافه، وكذلك الكلمات والأفكار التى يأخذها عن والديه وعن الناس، وكذلك الزملاء الذين يختلفون فى تربيتهم وفكرهم ومزاجهم وما اكتسبوه من عادات وتقاليد وأعراف، ومن المدرسة والشارع والمجتمع إلى غير ذلك مما يعمل فى طبع وتكوين عقلية الطفل وعاداته...

لذلك لا بد للوالد من اتباع منهج متوازن يبدأ من إعطائه المثل الصالح، بتركيزه من خلال الأسلوب الذى يتبعه الوالد فى الحياة. فلا يمارس بعض الأساليب التى ينهاه عنها حين ينهاه عن الكذب، ويكذب معه، ويمنعه عن الألفاظ الفاحشة البذيئة ويطلقها أمامه، وعن الخيانة ويخون، وعن الظلم ويظلم، وأمثال ذلك مما يرتد سلبًا على أسلوب الطفل، فيتحول إلى منافق كبير. ولا بد له أيضًا من التدخل لاختيار الأصدقاء ليكونوا ممن عاش تربية أخلاقية سليمة، واختيار المدرسة، بل والكلام الذى يلقيه عليه، وما إلى ذلك مما له تأثير كبير فى تكوين منهجه وعقليته وتفكيره وأسلوبه. ومن هنا نهى النبى صلى الله عليه وسلم إحدى النساء عن وعد طفلها بشىء لا تعطيه إياه؛ لأنها تكون كاذبة وتعلمه الكذب فى الوقت ذاته.

شواذ القاعدة

وليس معنى ذلك شمول هذا الحكم لكل الحالات. إذ قد يكون بعض الشدة علاجًا يتحقق من خلاله نتائج إيجابية، فبعض النماذج لا تستكين إلا لأسلوب الشدة من خلال واقعها وتركيبتها النفسية لكن لا بد قبل اللجوء إلى الشدة أو العنف من دراسة الواقع النفسى لدى الطفل، وملاحظة واقعه العاطفى والروحى، ومدى انسجامه مع الشدة وتأثره بها من دون أن تحقق سلبيات عليه.. فإن بعد التركيبات النفسية لا مجال لانسجامها مع الفكرة إلا بهذا الطريق، وهذا يفرض

اللجوء إليه، شرط ألا ينطق الأب أو الأم فى الشدة متأثرين بعامل الانفعال والتوتر الذى يقود غالبًا إلى تجاوز الحدود المرسومة فلا مجال شرعًا لمثل الأب الذى يضرب ولده أو يقسو عليه أكثر مما تفرضه الحاجة التربوية. وإلا فإنه يكون ظالمًا. وقد ورد فى بعض الأصول من الكتب الدينية عن الحدود التى يجوز فيها ضرب التلاميذ فى المدرسة؟ وهل يجب أخذ إذن والد التلميذ؟ بأنه: "لا يجوز ضربهم إلا لدى إيذائهم الآخرين وإخلالهم بنظام المدرسة. أو ارتكابهم محرمًا، فحينئذ يجوز ضربهم بإذن الوالد بمقدار خمسة أسواط أو ستة برفق، بنحو لا يستوجب الدية" "أى لا يؤدى إلى جرح أو كسر أو إيذاء.."

بناء عامل الثقة

ومن أجل الاهتمام بالجانب الروحى لأبنائنا وتركيز واقعهم لا بد من العمل على خلق حالة الشعور بالثقة بالنفس لدى الولد، بإشعاره بالكرامة والعزة والاحترام. فلا نحاول تعنيفه وتأنيبه أمام الآخرين حتى إخوته، حين يمارس أى سلوك خاطئ، مع أن المفروض فيه كطفل أن يقع فى ممارسة بعض الأخطاء؛ لأن طبيعته النفسية والفكرية وضيق أفقه يفرض وقوعه فى مثل ذلك. ولا بد من إشعاره بأخطائه بهدوء، وحين لا يستجيب لمثل هذا التصحيح يمكن التشدد فى معاملته حسب ما تفرضه الضرورة، شرط إشعاره بسبب العقاب والتشديد الذى مورس معه، والإيحاء له بالضرر الذى يترتب على سلوكه الذى عوقب عليه.

وهناك مجموعة من الحقائق الأساسية حول الإنسان والانحراف أهمها:

ـ أن الله خلق الإنسان وأودع داخله نوازع الخير والشر ومنحه حرية الاختيار وزوده وكرمه بالعقل القادر على التمييز.

ـ لم يترك الله سبحانه وتعالى الإنسان لعقله فحسب ولكنه زوده بالأوامر الإلهية وبالرسالات وبالرسل على الأرض من أجل هدايته فمن تبع هداه فلا خوف عليهم ولا يحزنون.

ـ النفس الشهوانية هي السبب الأول لانحراف الإنسان فعلى الرغم من أن الله سبحانه وتعالى قد هيأ كل أسباب الرفاهية والنعيم لآدم في الجنة إلا أن نزعاته الشهوانية وتطلعاته المادية لم تتوقف فما كاد الشيطان يوسوس له حتى انحرف إلى الخطيئة وعصيان أوامر الخالق.

ـ كان من نتيجة عصيان آدم لربه أن قضى سبحانه وتعالى بنزوله هو وزوجه إلى الأرض حيث يصبح بعضهم لبعض عدو وذلك حسب طبيعة النفس الإنسانية والتي تميل إلى الحسد والتنافس والتعالي والكيد والصراع وتحاول تحقيق الملذات الجسدية المادية الزائلة وهذا هو العامل الأساسي لانحراف الإنسان.

ـ الشيطان هو العدو الأول والأساسي للإنسان، هو الذي يوسوس له ويحرك دوافع الشر والانحراف داخله من خلال

الإغراءات الشهوانية والمادية الزائلة وما يترجم وسوسة الشيطان إلى انحراف فعلى ضعف الإنسان أمام المغريات نتيجة للبعد عن أوامر الله، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً ﴾ [سورة طه: ١١٥].

ـ اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن تكون وسوسة الشيطان للناس اختبارًا لهم ولعزمهم ولقوة إيمانهم، على أن أثر الشيطان ليس أثرًا حتميًا لكن الإنسان المؤمن يسهل عليه دفعه ومقاومته، غير أن الشيطان كثيرًا ما يفلح فى غواية الناس وانحرافهم فكريًا وسلوكيًا. وهذا هو ما أدى بالناس إلى الانقسام إلى حزبين حزب الله وهم المفلحون، وحزب الشيطان وهم الخاسرون.

ـ لقد التزم الشيطان أمورًا سبعة فى العداوة لبنى آدم أربعة منها فى قوله تعالى: ﴿ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثاً وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَاناً مَرِيداً لَعَنَهُ اللهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيباً مَفْرُوضاً وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيّاً مِنْ دُونِ اللهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَاناً مُبِيناً يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُوراً﴾ [سورة النساء: ١١٧ - ١٢٠].

ـ الشيطان غير متخصص فى نوع معين من المعصية، إنما هو يحاول دفع الإنسان إلى ارتكاب جميع أنواع المعاصى والانحرافات، سواء

انحرافات فكرية أو قلبية أو سلوكية، ظاهرة أو باطنة بالقصد والنية فهو يأمر بالفحشاء بكل أشكالها. قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلالاً طَيِّباً وَلا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة البقرة: ١٦٨-١٦٩].

ـ النفس كما خلقها الله مفطورة على الخير والشر، وقد خلق الله سبحانه وتعالى الغرائز للإنسان ولم يحرم عليه إشباعها ولكنه سبحانه نظم له أساليب إشباعها، وعندما أوضح الخالق سبحانه وتعالى أساليب الإشباع المشروع لهذه الغرائز أوجب اتباع هذه الأساليب لمصلحة الإنسان وحفاظًا على نفسه وأسرته ومجتمعه وعلى الفضائل، وتأتي الرذائل ويقع الإنسان في كل أنواع الانحراف إذا أطلق لغرائزه العنان.